ولز الاديب

محاضرة للدكتور ابراهيم ناجي في جمعية الشبان المسيحية

احدثكم الليلة عن ولز الاديب ، اي احدثكم عن عقل جبار ممتاز قليل النظير في تاريخ العقول الانسانية ! احدثكم عن عقل احاط بالماضي والحاضر وتغلغل في اعماق المستقبل. احدثكم عن ذهن عجيب اؤكد لكم اني لو اردت ان الخص بعض ما أنتجهُ لما كفتني عشرات المحاضرات. واني لحائر حقا الليلة في اي النواحي اتكلم ؟ اي القصة وهو فيها قد اتى بالعجب العجاب؟ ام في التاريخ والطريقة التي ابتدعها في كتابته ، وهو اول من تكلم في العالم كاسرة واحدة... لا كام منفصلة وطوائف مستقلة ! ام في علم الحياة ، وقد اشترك مع العالم الشهير جوليان هكسلي حفيد هكسلي الكبير ، في اخراج كتاب يعد من المراجع الشاملة الخالدة ؟ ام أتناول آراءهُ في علم الاجتماع وهو ميدانه الذي لا يجاريه فيه كاتب ولا عالم

ان ولز الاديب هو الذي يمثل الانسان والانسانية معاً بكل ما في الكلمتين من معنى . يمثل الانسان لان التعريف الكامل للانسان هو انهُ مخلوق يتميز بادمان النظر في الحاضر والماضي والمستقبل ، وهو يمثل الانسانية لانهُ وقف حياته على الدعوة للاخاء العام ، في خلق اسرة واحدة من امم متنابذة متطاحنة تخيم على آفاقها دائماً اشباح الحروب والويلات

﴿ميلاده﴾ ولد ولز في مقاطعة كنت بانجلترا سنة ١٨٦٦ .... فهو اذن قد قارب السبعين، ولكنهُ عمر حافل بكل ما هو جليل وعظيم. هو الآن في الشيخوخة ولكنهُ لا يزال في عزم الشباب الجار المتوثب . فقد اخرج اخيراً كتاباً ضخماً تناول فيه الكلام في سعادة العالم وهنائه وثروته ولم يكد يظهر حتى نشر رواية جديدة Bulpington of Blup .... حصل ولز على شهادة B. Sc. في العلم في سن باكر. ثم اضطرتهُ احوال الحياة ومطالبها القاسية ان يعمل في محل صانع الشة ، ثم صيدلياً ، ثم مدرساً حتى أصيب بنزيف رئوي كاد يقضي على حياته ولكنهُ كان المنحة التي وجهت ولز الى ما خلق له حقاً . فانهُ اضطر محافظة على صحته وحياته ان يشتغل بالتأليف والصحافة. وكثيراً ما كانت محن كهذه من البواعث على ظهور عظمة مستترة وموهبة خبيئة ، وما اكثر الكوارث التي كانت سبباً في ارتفاع الشخصية الكبيرة التي لا تهن ولا تتراجع !

وجد ولز نفسه مضطراً بحكم حالته الصحية ان يشتغل بالأدب . وهو يتميز عن كل

معاصريه وبقوقهم — يتميز عن هاردي وكبلنغ وشو ومع انهم من ناحية الفن الادبي البحت يتفوقون عليه — فان نظرته الى الحياة أرحب وعقله يمتد الى آفاق مترامية تكاد تصل الى الغيب

هو رجل يغوص في لجج الحياة الى اعمق اعماقه ، يغوص حيث يقف الآخرون على الشاطئ ، ..

هو ذكاء اكثر منه شخصية هو شبه نبي يحمل رسالة للعالم ، يشرّع للناس ويبين لهم اخطاءهم ويشير عليهم كيف يتلافونها ، .... ثم ينزل الى مستواهم ، فيجلس اليهم مسامراً منادماً كاحسن وأصفى ما يكون الندمان والخلان !

﴿ ولز H. G. Wells ﴾

﴿ مميزات ادب ولز ﴾ ما قيمة ولز ؟ ولماذا هو خليق بالدرس وجدير بالتأمل ؟ ان اول ميزة له تضعهُ في القمة وتجعله نسيج وحده هي انهُ متصلٌ اتصالاً وثيقاً بالحياة الحقيقية ومندمج فيها اندماجاً تامًّا ! وما هو الادب ؟ الادب انما هو تصوير للحياة وتسام بها ، وكل ادب يخرج عن هذه الدائرة فهو ادب مصطنع مزيّف . . . .

والميزة الثانية انهُ الاديب الذي يرمي الى غاية ، ويهتم بموضوعه ويفنى فيه ... ومع ذلك لا ينسى الوسيلة ، هي لا ينسى ان يكون فناناً يكتب باسلوب الاعجاز ويتخير لغة النجوم ! ولو انك جئت الى فنان كبروست او كبلنغ وطلبت اليه ان يكتب فيما يكتب فيه ولز ، في العمل والصناعة والتجارة والحواجز الجركية ، ... وان يؤلف قصصاً في مثل هاته النواحي ... والله لنفر وظهرت فضيحته

فولز هو الاديب الوحيد الذي وسّع دائرة القصص ونوّع الاغراض ، وتنقل في شتى المواضيع ، وطرق ما لم يطرق من قبل ، فلم تعد القصة قاصرة على الحب ، بل تعدّت ذلك الى الموضوعات العلمية يبسّطها بقلمه الجميل وتقرّبها بذهنه الذكيّ ويبتدع فيها بخياله الوثّاب فيأتي باغرب التخيلات ومنها كثير سبق فيه العلم والاستنباط ، كل ذلك في جوّ سحريّ متصل باللانهاية

واوافقه انك اذا طرحت من ادب ولز ثلاثة ارباع ما يتميز به من اتصاله الوثيق بالحياة ، وما كتبهُ في العلم والاجتماع .... لبقي الربع الاخير كافياً لان يعود على عدة مؤلفين بالشهرة ويغمرهم غمراً . لقد وصف الحياة والحب والموت ورسم الجمال والزهر بما لم يرسمه احد . خذ مثلاً هذا الوصف البديع لحديقة يسمعك فيها لحن جوقة من الازهار

«لقد كانت الزهرات تتدفق وتتعانق كالحان الموسيقى العذبة . وترفع اليّ عيوناً كعيون الاطفال ، وسرى الى اذني غناء سحري من فم الزهر والاغصان والاوراق وفجأة سمعت من اعماقها اغرودة طائر وخفق جناح مرتاع »

على ان النقيصة الكبرى في ادب ولز هي رسالته للعالم . انهُ يريد ان يلفتك امراً ، ويحمل اليك نبأ ويهمه ان تعي ذلك النبأ ، وتدركه وتتبصر فيه . فسوف يقرأ الناس ولز في كل زمان ومكان ناظرين الى المعنى الذي يريده والغرض الذي يرمي اليه ، والصورة التي يرسمها فيبدع في رسمها وبهذا سيخلد ولز ويعيش ادبه على الاجيال بينما يموت ادب بعض الآخرين ويبلى . ادبه هو صورة واضحة جلية بارزة ، وأدب الآخرين اطار بديع الصنع مزركش منمّق اما الصورة فغامضة قلقة مبهمة وسهلٌ جدًّا على الزمن ان يمحوها

على ان ولز فوق كل ذلك بعيد النظر الى المستقبل . فهو اختصاصي في التنبؤ بما سيكون ومن قرأ كتبه التي كتبها قبل الحرب يعجب جد العجب لانهُ وصف ما سيحدث وصفاً جليًّا دقيقاً وهكذا يسيح كلما صحت نبوءته ألم « اقل لكم » . ولقد بلغ من صدقه ان اقترح بعض الظرفاء على الحكومة ان تعينه متنبيء العرش ! ما دامت تعين شاعر العرش Poet Laureate

على انهُ شخصيًّا يحب ان يذكره الناس كرجل توفر على درس الماضي . انهُ اعطى للتاريخ معنى غير ما كان له فهو الذي تكلم عن العالم كأسرة واحدة ، وهذه الوحدة هي امنيته التي يريد ان تتحقق اليوم . يريد ان يمحو الفوارق والاجناس ، ويمزق العصبيات ، ويقسم ان هذا هو الطريق الوحيد الى السلام !

على ان صدق حدسه عن المستقبل مبني على تفهمه النادر للواقع ، حتى خاطبه احد ادباء فرنسا قائلاً :

«ان الذين يعرفونك يدعونك رجل احلام . ليسوا بمخطئين . فأنت تحلم بسرعة ولكنك تفكر بشكل مخيف : فأنت تفهم كل شيء دفعة واحدة واحاديثك السريعة المطبوعة بطابع العبقرية هي اضواء تخطف الابصار ولكنك تخطف الابصار بالفكر وهذا ما لم يتمّ لاحد

سواك . اي كاتب واديب كنت تغدو لو كنت اقل افكاراً وذكاء وعلماً ! »

لقد صار في زماننا من السهل اطلاق كلمة العبقرية على اي رجل يجيد الكتابة ولا يعنى بملبسه وانتظام حياته. فهذا الرجل الذي يبدع في وصف النساء والحرب والمدن والقسس واهل الصين ورجال المصانع والمعامل والحيوانيت، والذي يرى ما في سهول اميركا وحقول اوربا، ويرى ما تتجه اليه الانسانية ؛ وما يتدفق نحوه تيارها — الرجل الذي يكتب في كل هذا ماذا نسميه ؟ !

بعد هذه الالمامة التي اقدم بها الاديب ولز اليكم ، اجدكم في شوق لان تعرفوا موجزاً عن آرائه وتحيطوا ببعض من قصصه . فابدأ برأيه في حاضر الانسان ومستقبله ، ثم في العالم وحاضره ومستقبله ؛ ثم اختم المحاضرة بموجز لبعض قصصه الرائعة

﴿ اهتمام ولز بالفرد ﴾ ان ولز يهتم بالفرد كما يهتم بالمجموع ، ولفرط ما انتقد وحبس وغربل دعاه بعضهم متشائماً ، ولكنه ردّ عليهم ردّاً بليغاً في كتابه «انحاء العالم» Where the World is Going تناول فيه مستقبل الفرد وبنى ملاحظاته على قواعد علمية ثابتة . وخلص منها الى ان حياة الفرد اليوم — مع الضيق الشامل والازمات المتعاقبة — اسعد منها في اي عصر من العصور الماضية . وبيّن ان الانسان يتطور تطوراً بيولوجيًّا في السنين الاخيرة غير ملحوظ للذين لا يدققون ولا يبحثون ، للذين يعتقدون ان الطبيعة الانسانية ثابتة على مر العصور ! ونددّ بالذين يدعون الانسان للرجوع الى الوراء ، الى حضن الطبيعة ، الى ندي الام الطبيعي ! اما من جهة التطور البيولوجي في الفرد ، فتقرر اولاً ان الاحصائيات الجديدة في العالم المتمدين دلت على ان طول الحياة الانسانية في ربع القرن الاخير قد زاد نحو اثنى عشر عاماً في المتوسط ولا يهمنا من هذا ان تطول الحياة الى السادسة والخمسين بعد ان كان المتوسط يقف عند ٤٤ وانما يهمنا ان الطفل يمكنه ان يعيش اربعة اعوام مقابل كل ثلاثة كان يعيشها في الماضي ، واذن يمكن للطفل في البيئات المتمدنة في المستقبل ان يبلغ المراهقة بسلام ، ولنتذكر ان احصائيات المواليد هي خمسون لكل الف ، وان ٣٠ من هؤلاء الخمسين يموتون في سن الطفولة او المراهقة . والنقطة الثانية في التطور البيولوجي ان الحياة الانسانية كانت قديماً حياة جنسية تناسلية محضة . لم يكن امام الرجل غير ان ينشىء عائلة ويتجب نسلاً . لم يكن امامه غير ان ينشىء العائلة ويشقى لها ويحمل اعباءها ، يفرح بالمولود ، ويبكي على الميت ويدفنه ، ثم يبدأ من جديد . تلك حياة الهرة المخصبة الانتاج . ولكن التناسل اليوم ليس الكل في الكل ، بل تسمعون صيحة تدوي في كل ارجاء العالم ، تحض على تحديد النسل . وحين يتكلم ولز عن السلام في العالم ، فيدعو الى محو الفوارق . والاجناس ، وتغيير الحكومات ، يعود الى موضوع تحديد النسل ، ويؤكد انهُ لا سلام للعالم بغير العناية بهذه المسألة الخطيرة

لم تعد العائلة هي الكل في الكل، بل اصبحت دوراً خاصًّا في دائرة اوسع، تتخطاها الحياة الانسانية وتتجاوزها. لقد كان الرجل يبكر في تكوين العائلة، ويهمه القيام بكل ما تقتضيه ثم يتهدم ويعطب بسرعة. تسقط اسنانه ويكلُّ بصره ويذوي ويمضي الى القبر. تلك كانت القصة كلها. اما اليوم فاذا نرى؟ نحن في حال جديدة. الرجل لا يبكر الى الزواج كما كان يفعل قبلاً، وفي حياته امور غير الامور الجنسية والرغبة الجامحة. واذا بلغ المشيب استعان بالطب والاطباء على الضعف والخور.

والواقع ان هؤلاء امكنهم بكل يقين ان يصبنوه على ان يكون في مشيبه في حالة لا بأس بها من النشاط والصحة، واذن فالذي هو حادث والذي ينتظر ان يكون في المستقبل انه بدلاً من ان يبدأ الرجل في تكوين العائلة وحمل مسئولياتها والقيام عليها وهو في سن غض، ثم يذبل في سن مبكر بعد ان تلتهك قواه وتتحطم من دون ان يجد حيلة في الهدم وعجز المشيب ستكون الحال ان يأخذ الرجل — وقد اخذ فعلاً — في تكوين العائلة في سن مناسب، ولن يحصر قواه التناسلية في الانجاب، واذا شاخ وجد من اطباء الاسنان والعيون، والاطباء الذين همهم اعادة النشاط والشباب بواسطة العلاج بالغدد، سيجد من كل هؤلاء من يصد عنه العطب السريع والذبول المهلد، .... اذن فنحن سنترك حياةً منهوكة بها شبه حتى الى حياةٍ اكثر استقراراً واوفر نضجاً، الى عمر اطول واشدَّ حيوية ونشاطاً

هذا فيما يختص بالتطور البيولوجي للفرد، اما فيما يختص بسعادة الفرد فان ولز أشد تفاؤلاً. نعم ان الفرد اليوم اسعد منهُ في أي وقت آخر، من بدء حياة الانسان على الارض الى يومنا هذا. هو أسعد رغم كل القوى التي تعترض هناءتهُ وتعوق تطوره، وهذه القوى موجودة حقًّا، وكثيرة. يقول المتشائمون اننا شذذنا عن حضن الامّ الطبيعة فعوقبنا واقتينا جزاءنا، وهو قول منقوض من اساسه! الام الطبيعة، تحلمون بها حينما تتفرجون على التلال العظيم والجبل المنيف والصخر الأشم! تفرحون بها وتتخيلونها في الربيع الزاهر والنجم المتألق والقبة الباهرة، ولكن تعالوا اليها حيث تتجمع المخلوقات، تعالوا اليها في الغابة، هي قسوة وفوضى، هي مراد وشهوة، هي جوع وخوف. هي كمين وشرك. هي كلة القتل تهمس في الأرواح. وتتقاتل في الباطنة، وتتردد في الأدغال! ان اهنأ ما يتمتع به الحيوان هو ضعف الذاكرة وقصر البصر، واهنأ ما يسيطر عليه الغريزة الجنسية، وما الغريزة الجنسية غير عذاب وقلق. غير لذة مخيمة يختلط بها خوف ويظللها كهام قاتم!

هذه هي الحياة في الطبيعة! عمل مفكك غامض حتى جاء الانسان فوصله وجمعه واحكم نسجه

ثم ان اولئك الذين ينادون بالرجوع الى الطبيعة بغية الصحة، يحسبون ان الحيوان معافى من العلل. ولو أنهم قرأوا التاريخ الطبيعي لعلموا أن الامراض جميعها كانت متفشية تفشياً مريعاً.

فان صيادي القبيلة يقتلونهم بواسطة الأصوات التي تحدثها امعاؤهم من كثرة الغازات ، وحياة البر ليست الا سلسلة من جوع فظيع الى شبع بلا راحة ، وهل كان الانسان الأول غير مخلوق شبيه بهؤلاء ! مخلوق يتحكم فيه الجوع والخوف والغريزة الغشيمة . . . . والذين يقرأون عن التطور يعلمون ان اغلب العظام التي تركها الانسان الاول هي عظام مريضة

والواقع انك لا يمكنك ان تضع اصبعك في أي عصر من عصور التاريخ مهما كان زاهياً جليلاً لتقول ان الفرد هنا كان اسعد من الفرد في عصره هذا ! حتى الكتاب الى عهد قريب ما كان يعنيهم الفرد وقليل جداً منهم من عني بوصف حياته اليومية . . . . والذي اهتم بتصوير عيشة الفرد رسمه منغمساً في الجهل والمرض والظلمات

وفي ازهى عصور التاريخ — سواء عهد الرومان او المصريين — كان الفرد سخراً . وما الاهرام ، وما المشيدات الرومانية الفخمة الا بيد الفرد المستعبد المسكين المرهق

على انه في منتصف القرن التاسع عشر فقط ، وعلى أثر المخترعات العلمية ، وعلى أثر التطور والتقدم الحديث في المعرفة ، اخذ يطلع على العالم فجر جديد ، فجر يبشر بزوال تسخير الفرد وارهاقه . فأخذ يعرف طعم الراحة ، وزال الرق وتحسنت الصحة العامة وقلت الوفيات !!

وعلى رغم العوائق التي تعترض تقدم الانسانية ككتلة العوائق التي سنبينها فيما بعد ، على الرغم من كل هذا فان الفرد ارغد حالاً ، وسيطرد الرخاء والرغد في المستقبل . ثم يصيح ولز : اذن فاعلموا اني متفائل ، أرى الفجر يقترب وارى البشائر في حواشي الافق !

«ولز والعالم» تلخص رأي ولز في مستقبل الفرد ، وقد تبين لكم ممن بصره وحدة ذكائه اما في ما يختص بآرائه في العالم فهي اعظم شأناً واكثر جدة وطرافة ، ومنها تتبينون اموراً لفتها المضللون في اثواب من الزور ، وطلوها بطلاء كاذب ، فاذا اردتم ان تناقشوا العصر وتقفوا على دخائله ، اذا اردتم ان تعلموا شيئاً عن حكومات العصر ، وعيوبه ومن أين نشأت . . . . وعن النظام المالي ، وعن شبح الحروب المهددة للعالم ، اذا اردتم ان تعرفوا ذلك بوضوح فعليكم بولز . وقد قال احد كبار ادبائنا انه لم يفهم الاشتراكية الا بعد ان قرأ كتاب ولز «عوالم جديدة عن عوالم قديمة» New Worlds for Old . وقد اجتهدت ان اغرف لكم من البحر الزاخر الغني بالدرر فعذراً اذا قصرت فقد اخذت على عاتقي مهمة تنوء بها الهمم

نحن في عصر الديمقراطية . والديمقراطية متأصلة في نفس الانسان من اول نشوئه ، ولكنها لم تأخذ في سبيل التحقيق الا في القرن السادس عشر . في ذلك العهد بذرت بذورها ، وفي العصور التالية نبتت ونمت ، وفي عصرنا ازدهرت ، وليست فكرة الديمقراطية فكرة سياسية فقط بل هي تتناول الأدب والفن والموسيقى

ماذا نعني بالديمقراطية ؟ الواقع ان اغلب الناس حتى المفكرين منهم يلتبس عليهم ادراك

معناها الحقيقي ، وكيف هبطت اليها ، ومكانتها اليوم . ان الديمقراطية ترمي الى غايتين

(١) كل الناس متساوون تحت عرش الله

(٢) كل الناس متساوون في نظر القانون

ومعنى هذين بكل وضوح انهيار النظم المبنية المتحكمة ، وتحدي الاستئثار والسلطة ، ومعنى هذين أيضاً انفصال الفرد عن كتلة المجموع ، وتحرره منها وشعوره بذاتيته ، والاعتزاز بنفسه كشخص حرّ له ان يحب ما يشاء ويبغض ما يشاء

اما في السياسة فتعلمون ان الحكم اصبح دستوريا ، معتمداً على اصوات الافراد الانتخابية

أما في الادب فبعد ان كانت الرواية تعنى بالمجموع ، وتتكلم عن الملوك والامراء والابطال والديانات وما اليها ، اصبحت تعنى بخلق الفرد وحياته وتحلل ميوله واهواءه ومعيشته . ولا شك ان اكثركم قرأ رواية « دون كيشوت » الشهيرة ففيها بوادر السخرية بالارستقراطية والتمرد عليها ، وان في انتصار الطاحونة ، التي هي ملك للعامل البسيط ، على البطل المدرّع ، لرمزاً جديراً بالتبصر . وخذوا مثلاً روايات الادباء جبارة القرن التاسع عشر كزولا وبلزاك وديكنز وترجنيف تجدونهم يصورون العالم كوخ كبير فيه الرائح والغادي كل يعمل لحاجته ، حرّاً منفصلاً وهو مع ذلك متصل بالانسانية الكبيرة اتصالاً لا يغير شخصيته ولا يمحوها

وكذلك في الفنون : فقد كان الفن يعنى بتنسيق عمارة ضخمة ، او النقش في هيكل ديني او خدمة نزعة سياسية ، وكانت الموسيقى مقتصرة على ألحان دينية ، او ألحان تطرب الملوك وتستثيرهم ابطالهم وجنودهم في ميادين الحرب والقتال . لقد تغير كل ذلك واصبح كل فنان يعمل كما يهوى ... حرّاً طليقاً كالطائر الباسط جناحيه حيث تشتهيه اجواز الفضاء !

إذن ... فان الديمقراطية هي انفصال . هي تجزء ، هي انطلاق ذرات كانت ثابتة في هيكل السياسة والآداب والفنون . . ويجوز لنا اذن ان نسميها الديمقراطية التحليلية . . ومن المتناقضات العجيبة ان يقابلها في نواح اخرى نظام تركيبي ، وبخاصة في العلوم . فلقد كانت الحقائق العامة منفصلة لا تلتئم بينها فأصبحت هذه الحقائق خاضعة لتجارب تحققها وتنظم عقدها حبة حبة

قلنا ان الفرد قد انفصل عن كتلة المجموع واصبح معتزّاً بنفسه ، ثائراً على التقاليد القديمة فاذا جرّ عليه اعتداده بنفسه ؟ جرّ عليه امرين ، الامر الاول انصاله في حدود بلاده ضد ما بقي فيها من آثار التحكم والقوة ، وانفصاله خارج بلاده معتزّاً بما يسميه بالعصبية القومية ، فخوراً بنعمه مدافعاً عن وطنه بلا حساب .... ولكن من العجيب انه وهو في هذا الانفصال والتحرر يتطلع الى المشروعات الاقتصادية المركبة الضخمة التي تحتاج الى جهود متجمعة اي ان الديمقراطية التحليلية تؤدي من غير قصد الى نظام اقتصادي مركب . . . . . وهنا

يعطدم الفرد من جديد بالرءوس التي تريد ان تزعم ، وتدير العمل وتتحكم فيه ؛ ومن هنا نشأت فكرة الاشتراكية فما الاشتراكية مهما تختلف الآراء فيها الا نظاماً يراد به بث الديمقراطية في النظام الاقتصادي ، كما بثت في النظام السياسي ، او بعبارة اخرى ان ينقل الحكم في عالم الاقتصاد من رأس يتحكم فيها ويديرها الى جماعات من نفس العمال ، او من قوم ينتخبهم العمال. فالديمقراطية التحليلية امرٌ جميل جليل ولكنه يمتدُّ ويتشعب في غير حدود ولا نظام . على ان شعور الفرد بنفسه وكرامته وقوميته في كل امة جعل شبح الحرب دائماً ينذر ويهدِّد ، وان كل فرد في سبيل المغامرة المالية لنفسه جعل النظام المالي مضطرباً قلقاً والاصطدام بين العمال وأصحاب رؤوس الاموال ، جعل النظام الاقتصادي متداعياً على وشك الانهيار ، وتلك هي المشاكل الثلاثة التي تواجه العالم الآن . وهي كما تبين لكم ايها السادة منشؤها ديمقراطية تحليلية ، تتشعب وتمتد وتطغى بلا حد ولا قوام

بعد هذا التفسير المنطقي المعقول لمشاكل الحاضرة نريد ان نسمع من وز طريقته في العلاج . ما دام قد شخص الداء ، يقول هذا الطبيب المشخص لعلل العالم اننا لا يمكننا بالطبع بحال من الاحوال الرجوع الى الاساليب القديمة والنظم العتيقة ، ولكننا في حاجة الى اصلاح هذه الديمقراطية التحليلية ، وايجاد ما يسمى بالديمقراطية التركيبية Synthetic Democracy

ان الحكومات الحاضرة في نظر وز غير صالحة ، ان الزعماء الذين يصلون الى مراتب الحكم معتمدين على صوت الفرد ، جلّ همهم أن يرضوه ، وأن يصلوا ... وهم لا يصنعون شيئاً ينفعون به سلام العالم ، انما هم يجتمعون ويتكلمون ويؤدبون المآدب ولا يقومون بعمل جدي . فوز غاضب على الساسة ، غاضب حتى على أمته ، غاضبٌ على الاستعمار ، يود أن يفتح عينه ويضعها حيث مقاعد الحكم وقد خلت من هؤلاء ، وجلس عليها قومٌ ينظرون بعينهم لا الى امعهم فقط بل الى العالم كاسرة ، ولا يتعصبون لوطنيتهم وذوي رحمهم بل يتعصبون للاخاء العام ويعملون لمحو الفوارق وهدم الحواجز الكاذبة التي تفصل بين امة واخرى وبين شعب وآخر !

يريد ان يرى في كراسي الحكم قوماً متطوعين ، مستعدين لان يموتوا في سبيل اغراضهم وما اغراضهم هذه غير ان تنتهي الحروب ، وتخلق وحدة اقتصادية كبرى تشمل الدنيا ، ووحدة مالية تحفظ العالم من الخراب والدمار ! هذا ما يقصد وز بالديمقراطية التركيبية ، في كتابه يوتوبيا الجديدة ، التي يتخيل فيها المدينة الكاملة والحكومة المثالية ... يريد تعاضداً وتسانداً في الحكم والاقتصاد والمال .... ويقول انه ليس يحلم وانه يرى في الافق طلائع مقبلة تبرهن وتؤكد وجودها وان حسبهم عنا الغبار الذي تثيره حوافرها

***

هذه بعض آراء وز وتنبؤاته ألا تجدونه جديراً بالاجلال ، جديراً بان تقرأوه وتلتفتوا اليه؟

﴿ دار القصص ﴾ الأديب دار قصص بديع ، كتب في جميع الأغراض وتناول كل الشؤون ، وجوّد في القصة القصيرة تجويداً بديعاً في القصة الطويلة ؛ وكل قصصه جيد وممتع ؛ بحيث يحار الانسان ماذا يختص وماذا يدع ! وقد اختير النقاد على ان احسن قصصه القصيرة هي قصة «صانع المعجزات» وقد اختيرها هو نفسه عندما دعي لان يختار احسن قصصه ؛ ولكني وجدت قصة « قلب الأم وبنشاريا » أجمل وأظرف وسأبدأ بتلخيصها لكم . . .

الس وبنشاريا فتاة جميلة راقية تدرسان في احدى الجامعات اصطحبت صديقتين لها في سياحة الى روما . وبينهم من سياق القصة ان الفتاة هي وصديقتها جمالاً وثقافةً ومالاً وجاهاً . يقطعن الطريق في دعابات وحوار ، فكلما رأين شيئاً ضحكن وسخرن في مرح وجذل . الى ان وقف القطار ساعة في محطة من المحطات فصاح صائح يدعو شخصاً لم يرينهُ باسم غريب ضحكن له واستغرقن في الضحك: هذا الاسم بالانجليزية هو Snooks يقابله عندنا جُحْلُص مثلاً فتضاحكن وتخيلت كل واحدة انها حبيبة او زوجة لشخص يدعى بهذا الاسم وكلما افتكرن في هذا أغرقن في الضحك. حتى بلغن روما . فصرن يتنقلن بين آثارها وهياكلها العظيمة ، ففي اثناء طوافهن تعرفن الى شاب مثقف جميل وسيم صار يطلعهن على ما لا يعرفن ثم ينصرف في ادب ووقار تام . وصار الحظ يجمعهن به مراراً فتعلقت به وبنشاريا ، ورأت انهُ يبادلها عطفها .... حتى خلت به مرة وأخذا يستمدان لحديث اعمق ، ويهمان بان يبوحا بأسرار دفينة ، ، فاذا بصاحب له يناديه عن بعد « انت هنا يا جُحْلُص » فبهتت الفتاة ... وكأنما اسدل بينها وبينهُ حجاب كثيف وتنكرت له من ذلك الوقت ؛ تنكرت لاسمه الذي لم يعجبها ... ولكنها راحت تفشي سرها لاحدى صديقتيها : وتقول لها اذا عدنا الى وطننا فاتصلي انتِ به واكتبي اليَّ .... وفي انكلترا تتصل به « فاني » ... و«فاني» هذه فتاة ضخمة لا تصلح لغير الطبخ والكيّ ، اي لا تصلح لفتى مثقف مهذب جميل

المهم انها اتصلت بصاحبنا ... ولكنها لم تكتب الى صديقتها عنهُ غير كلمات قليلة لا تشفي غليلاً ... الى ان ارسلت اليها خطاباً ذات يوم تخبرها فيهِ انها تزوجت «جُحْلُص» . . . وعلمت انهُ مرضاة لخاطرها قد غيَّر اسمه ... فانهارت آمال وبنشاريا اولاً لان صديقتها خانتها، وثانياً لان العقبة التي تخيلتها كبيرة : عقبة الاسم كانت غاية في البساطة ، وثالثاً لان فاني هي الوحيدة التي لا تصلح زوجة لذلك الرجل

على انها تعللت بالمحال ، وتوقعت ان يحصل بينهما خلاف ، فلم يحدث ، فزارتهما في منزلها فرأت ما زادها حسرة وألماً . وجدت الحبيب المثقف الرقيق قد سمن وتكرش ، كلّه في الاكل فلم يذكر حرفاً ، وفي الفن فلم يفتح فمه ، لحادثة في الاكل فاندفع كالسيل ...!

﴿ صانع المعجزات ﴾ كان المستر فوندرجاي حتى الثلاثين من عمره ممن لا يؤمنون

بالمعجزات . وهو صغير الجسم شديد سواد العينين يشتغل كاتباً في احد معامل الدراجات

فذات ليلة اجتمع بصاحبه في بار لونج دراجون وما لبثت المناقشة ان دارت بين الصديقين حول امكان حدوث المعجزات او استحالته ، فصاحبنا فوذرنجاي متصلب لا يقبل ان يستمع الى مثل هذه الخرافات ، وصاحبه شديد الايمان بها . وثارت المناقشة حتى صاح فوذرنجاي مشيراً الى المصباح الكهربائي الذي ينير الحانة : اتظنني لو حصرت ارادتي واشرت الى المصباح بقوة الارادة وامرته قائلاً « انقلب ايها المصباح رأساً على عقب على ان تظل مضيئاً » اتتحقق مثل هذه المعجزة . فلم يكد ينتهي من قوله حتى انفصل سلك المصباح المعلق من مكانه في السقف . وانقلب كما امره . اما هو فوقف باهتاً . واختبأت فتاة الحانة مرعوبة ، وفرّ بعض الزبائن ولم يطل هذا المنظر غير ثوان صاح بعدها فوذرنجاي « النجدة النجدة ! ان قواي لا تستطيع ان توقف المصباح على هذه الحال طويلاً ! اني اشعر بالعجز » . قابلت المصباح ان وقع تحطم وساد الكل ظلام دامس ! واخذ الجلوس يلومونه لوماً شديداً على جنونه هذا واقترحوا عليه ان يسرع بالانصراف ففعل ! ووصل الى حيث يسكن مفكراً مهموماً لا يصدق ما حدث . فارتمى على فراشه بملابسه يفكر . وخطر له من جديد ان يجرب قوته الخارقة في الشمعة المضاءة . فحصر ارادته وقال لها ارتفعي من مكانك وانقلبي وظلي مضيئة . . . . فكان في الحال ما اراد . ثم أمرها بالنزول فسقطت مشتعلة واحرقت الغطاء . . .

فعرف ان الله حباه قوة غير عادية ... واخذ يجرب من جديد . طلب ان يهبط عليه عود ثقاب . فرأى بصيصاً من الضوء وعود ثقاب يقع في قبضة يده . وشعر بالظمأ فامر بورقة ان تصير كأس ماء ، فكان له ما أراد ، ثم خلق على هذه الطريقة مشطاً ثم فرشة اسنان ...

وأراد ان ينام من دون ان ينفق جهداً ، فامر ملابسه بترك بدنه ، وحذائه بخلع ، وامر لنفسه بقميص من الحرير ثم امر نفسه بالنوم العميق والاستيقاظ في ساعة حددها

وذهب الى عمله في اليوم التالي مضطرباً كمن يكتم سراً ويحمل أمراً عظيماً ، وانصرف في المساء ، ومشى في شارع قليل الضوء مفكراً يضرب بعصاه الارض فخطر له فجأة ان يصنع معها صنيع موسى بعصاته .... ان يقلبها حية تسعى . ولكنه خشي العاقبة . فامرها ان تستحيل « زهرية » فاستحالت ، وان تعود عصا كما كانت فلم ترفض له طلباً . غير انه ليث ان ... ضجة ورجلاً من المارة يتقدم اليه في الظلام سائلاً شاتماً لان العصا في حركتها اصابت ذقنه فأدمتها .... وجاء على الضجة الكونستابل رولنس ولامه كثيراً على اعماله الجنونية وذكّره بفصل الحانة ليلة امس ، وانه كان حاضراً كل شيء . ومازال يسبّه حتى ضاق به صاحبنا ذرعاً فصاح به « إذهب الى جهنم » Go to Hell . فلم يعد هناك كونستابل ما . ذهب رولنس راح حقيقة الى جهنم ! فارتاح فوذرنجاي وانبه ضميره على ارسال الكونستابل الى جهنم ، وشاء

مخلة بيف العقاب عنه فأمره بالذهاب الى سان فرنسيسكو

وذهب في اليوم التالي الى الكنيسة ، وخطر له ان يخبر راعي الكنيسة بما وهبه الله ، فانتظر حتى انتهت الصلاة ، وزاره في بيته ، وباح له بكل شيء ، وامرّ اليه نفسه على ما فعله بالكونستابل رونش ، وانه بعد ان نقله من الجحيم الى سان فرنسيسكو لا يزال ضميره يؤنبهُ اذ ماذا يسمع الكونستابل المسكين في ذلك البلد النائي السحيق . فطمأنه القسيس واخبره ان الله اختاره والله يختار مايشاء ، وطلب اليه ان يعرض «العاية» . فنظر صاحبنا الى علبة التبغ قائلاً كوني وعاء مملوءاً بزهر البنفسج فكانت ، ثم قال كوني صحن «تلك فكانت» . . وهكذا . فطرب القسيس وآمن ، ودعاه للعشاء معه . . فشكا القسيس اليه كسل الخادمة ، فقال فورذنجاي انك سترى عجباً . وامرها امراً خفيًّا ان تقلع عن الكسل ، فسمعوا في الحال صوت الاطباق والمعالق وحركة حيوية وذهاب ونشاطاً غير معتاد . . . . لقد استيقظت الخادمة من نومها العميق ، وهي تهيء لهم العشاء في اهتمام لم يره القسيس ولا أحد من قبل

وطلب القسيس ان يستغل هذه القوة الخارقة في اصلاح الناس ، فكان يدور بصالح المعجزات في الحانات ويزور الفساد . فاستحالت الخمور ماء ، وانمحت الجرائم ، وصلح الاشرار ، وكثر الابرار

وذات ليلة سهر فورذنجاي مع القسيس حتى الساعة الثالثة صباحاً ، فخطر للقسيس ان يجرب صاحبه من جديد فاشار اليه ان يأمر الارض بالوقوف والارض بان لا تدور فوقف واستجمع كل عزمه وصاح «أيتها الارض قفي عن الدوران» . فوقفت الارض كلها ووجد الرجل نفسه يطير في الفضاء بسرعة مليونين ميل في الثانية . . . فحاول ان يستجمع قواه ويأمرهُ بالعودة فخانته قوته . فشحذ عزمه وامر الكرة الارضية ان تعود الى الدوران وان يعود هو الى الارض سالماً

فدارت الكرة الارضية ، وعاد هو سالماً ، ولكن ماذا وجد ! وجد الزلازل في كل مكان ، والاعاصير تهب والمباني تتطاير والماء يتدفق . . . فجمع ارادتهُ وقال « يا الله ! يا ايتها القوة العظيمة . . . يا جميع القوى السماوية والعالمية اعيدي الحال الى ما كانت عليه . . وخذي مني قوتي الخارقة مقابل ذلك . اعيديني عاجزاً وانقذي العالم » . فلم تتم صيحتهُ حتى وجد نفسهُ جالساً في الحان . . . والكأس العاشرة في يده . . . يناقش صاحبهُ في امر المعجزات وينكر وجودها بتاتاً . . . ويصيح كلاً . انها كلام فارغ . . . انه يوجد معجزات

﴿ القصة الطويلة ﴾ اشهر قصص وار الطويلة هي تونو بانجاي وكيس واستيقاظ النائم وطالع وليم كليسولد ومكيافلي الجديد . ولكني اختار قصتهُ تونو بنجاي لانها شبيهة كل الشبه بما يحدث في مصر . . . مصر التي يكثر فيها السنبرول والكالفويد ، ويثري فيها ثراء فاحشاً اصحاب هذه العقاقير . بينما يجوع اصحاب الضمائر ، يتمتع المجالون بالرخاء واليسر ويمرحون في اثواب النعمة

تونو بنجاي Tono Bungay اسم دواء اخترعهُ العيدلي الحقير السيد بونديرثو . رنّ

في اذنه جاءة ... فهمس به في اذن مساعده وابن خاله جورج : وصاح الا تجده كصوت القنبلة هذا هو تركيبه يا جورج انه مقو للاعصاب. وهذه صورة الاعلان وسوف نتفق على الاذاعة عنه المال الذي يخلفه لك من ابيك. لا تحتج بالضمير يا جورج ودعك من الفلسفة ودعني اعمل

وبعد ان كان دواء مقوياً تفرع منه مسحوق للاسنان ، وآخر مانع لسقوط الشعر ، وقنبرة ، وصابون ... وكذلك تدريجاً اختفت العناصر التي تكونه ... ومع ذلك سار سير البرق والمال المال ... وصار العم يزداد وجاهة وايماناً بذكائه وازداد كرشه الضخم تطبلاً وتكوراً وصار لنسمه شكل افواه العظماء : اذا صح قول فاليري ان اعيننا هي ما نحن اما الفم فهو ما نعبر اليه . وتعددت المشاريع وكبرت الشركة ... واتسم المعمل على لا شيء

واخذ العم يبتني قصراً ... واخذ جورج يتحبب الى فتاة غنية تدعى بياتريس ، ومن يقرأ قصة الحب بينها وبين حبيبها يؤمن بان وزر عالم تنمي من الطراز الأول : تقول له وقد خرجا الى الفابور والمطر يسقط رذاذاً اني احبك الآن لا لما فيك من مفاتن بل احبك باجمعك ، احب فيك غرورك وحمقك ، احب قطرات المطر على معطفك . ثم يوصلها الى منزلها فتقول له تعال : ادخل اني احبك الآن . ولكن الابله يجيبها نعم ولكني مضطر الى الذهاب... فتغلق الباب غاضبة وهي تقول « اذن فاذهب . »

وكل من قرأ علم النفس الخاص بالمرأة يعلم ان المرأة غير مستعدة لان تهب نفسها الا في ساعة واحدة ترمي فيها بين ذراعي حبيبها وقد فقدت كل وعي . وهذه الساعة يعرفها وينتظرها كل «دون جوان» خبير ، ويمر على الغر الابله دون ان يلحظها

قلنا ان الثروة انهمرت كالسيل ، واستعملت في المشاريع الجديدة ، أي في نصيب جديد الى ان حدث ذات يوم ان كان العم متعباً مريضاً وفي عينه أثر الدموع ، وعلى وجهه ذلة ومسكنة . فسأله جورج عما به ، فاجاب لقد ذهب كل شيء ... ان الخراب والعار يهددانا . انهم يحققون معي ، ويحللون الادوية ... ويسألوني عن الترخيص ، وليس لدي ترخيص . ثم يبكي كما يبكي الطفل وهما امام القصر الذي يعلو ويتطاول

يهربان في طيارة ويمرض العم وتشتد عليه الحال في باريس . وهنا فصل من اقوى الفصول في الادب على الاطلاق ، فبينما انت تعرف ان الرجل نصاب فاذا بك تشفق عليه وتجد الدمعة تترقرق في عينيك ، وتؤمن بقوة وزر الاديب لانه يجعلك تشعر انك لست امام الرجل النصاب يحتضر ، بل امام الانسان بكل ضعفه وعيوبه وعجزه امام المقادير والموت ، امام الآمال التي تتجمع ثم تنهار ، وامام العظمة التي تكاد تقبض عليها فاذا هي تتوارى كالشبح ، واخيراً امام الماء الذي تفضي اليه ظامئين فاذا هو سراب يلمع في الصحراء ثم يختفي

وختاماً اوجه نظركم من جديد الى الاديب وزر فهو جدير حقاً بأن تنفقوا في درسه اوقاتكم